١ — إدريس الشرايبى

من كتاب الطليعة الذين بنوا لأنفسهم مجداً ومكانة مرموقة فى الأدب الفرنسى المعاصر ، ولفت أنظار النقاد فانقسم هؤلاء بين محبذ ، معجب ، متحمس ، منصف يرى فى آثار الشرايبى صدى لمساوئ الاستعمار وما ينطوى عليه من جرائم فظيعة ، وبين ناقم غاضب مبغض يرى فى آثار الشرايبى وسواه من الكتاب الجزائريين كفراناً للجميل والنعمة ، وتنكراً للغة التى يكتب بها ، وإنكاراً لعمل فرنسا الحضارى التمدينى فى أفريقيا الشمالية ! وقد أسهم الجانبان فى التعريف بالشرايبى والدعوة له . تلقى الشرايبى علومه الأولية فى بلدة تلمسان ، ثم رحل إلى باريز يدرس الكيمياء ، ولعل دراسته لهذا العلم يفسر هذه البراعة فى التحليل والدقة فى الملاحظة واصطياد النواحى الخفية وتثبيت الصور الآبقة التى يلحظها بعين المفن الواعى الموهوب .

واشتهر الشرايبى بروايته « التيوس » وهى رواية قوية عبر فيها عن حياة أديب جزائرى جاء فرنسا ليكتب ويعيش من

أدبه وفنه . ولكن أنى له ذلك وهو من قوم دون أهل البلاد . وذو عقلية مخالفة لعقليتهم ونظرة للوجود لا تمت إلى نظرتهم بصلة ولذا عاش ساخطاً متبرماً ناقماً على الذين حرموه نعمة الحياة وأفسدوا عليه عيشه وأذلوا نفسه ، فلم يمكنوه من الارتفاع فوق المستوى الذى يعيش فيه مواطنوه « التيوس » وهم الجزائريون الذين رحلوا إلى فرنسا للعمل فى معاملها ومزارعها . وقد استطاع الشرايبى أن يعبر عن آلام مواطنيه. فقد عاش معهم « يأكل ما يجد ، وينام حيث يتيسر له مكان للنوم ، ويشتغل أحياناً حسب الظروف عاملا ، وبائع صور خلاعية ، وحمالا وعامل منجم فى الأعماق الكبرى » ولذا تراه صور لنا جميع الأوساط التى مرّ بها وذاق مرارتها وبؤسها . وأنت تري أنه لم يقف موقف الروائى الوصّاف بل استحال فى روايته إلى فرد من بنى قومه ، وجزء من كفاحهم حتى ليتساءل المرء فى بعض أجزاء الرواية عما إذا لم تكن هذه ترجمة ذاتية للمؤلف .

كيف يعيش هؤلاء الجزائريون فى فرنسا ، وما هى الظروف التى أدت بهم إلى هجر بلادهم والعيش فى ديار الغربة ؟

إن لهؤلاء الجزائريين قصة مؤلمة أوجدها الاستعمار وسوء

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الجزائر ، وخلاصتها أن هؤلاء القوم لم يهاجروا إلى فرنسا كما يدعى الاستعماريون بدافع من « ميل غريزى عند الجزائرى للرحلة والتنقل » ولم يهاجروا طلبًا للمتعة واللهو ، بل لعل هذين الأمرين جديران بأن يصرفاهم عنهما ، فإن أكثرهم وعددهم يربو على الثلاثمائة ألف من طبقة العمال الزراعيين ، فعوضاً عن أن يشتغلوا فى فرنسا بالزراعة اشتغلوا — وذلك لرخص أجورهم — فى أكبر الصناعات مشقة وقذراة ، وأشدها فتكاً بالصحة كالصناعات الكيميائية والزيتية ومصافى النفط والصناعات الفولاذية والحديدية الثقيلة والمناجم وبخاصة العميقة منها ، فهم ينتقلون فجأة من مناخ حارّ مشمس إلى بلاد قارية كثيفة الضباب والرطوبة ، يجابهون هذا المناخ القاسى بثياب رقيقة يرتدونها فى الفصول الأربعة على السواء ، وهم إلى أميتهم يعيشون فى بلاد يجهلون عادات أهلها ولغتهم ، أتوا إلى فرنسا دون مال أو أسرة بعد أن غرر بهم مواطنوهم فيتجمعون حسب القرى والبلدان التى خرجوا منها ، يتكدسون فى أكواخ حقيرة ، محرومين من الغذاء ، تنتشر بينهم الأمراض السارية ، يقطن أربعة أو خمسة أو ستة رجال فى غرفة واحدة يستأجرونها بأفدح الأثمان ، يطهون طعامهم

بأنفسهم اقتصاداً بالنفقة من جهة ، وأنفة من المطبخ الأوربي من جهة أخرى . فإلى جانب فئة ضئيلة من هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا إلى فرنسا ليعملوا فى مهن حقيرة نجد الأكثرية منهم لا هم لهم سوى جمع كمية من المال والعودة بسرعة إلى بلادهم ليتحرروا بما جمعوه من قبضة المرابين الذين رهنت عندهم مزارعهم وأراضيهم .

ولهذه المشكلة أسباب أخرى حرصت فرنسا على بقائها تؤدى كلها إلى انخفاض مستوى اليد العاملة والتوسع فى سياسة الإفقار والتهجير

أما بداية المغامرة كما يراها إدريس الشرايبى فى رواية « التيوس » فهى فى تلك اللوحات الإعلانية المنصوبة على الجدران فى مدينة الجزائر القديمة أى فى الأحياء العربية ، وهى تغرى الجزائريين بحروف حمراء هائلة بالرحيل إلى فرنسا ، لأن فرنسا بحاجة إلى أيد عاملة ، وأن الديموقراطية خصبة فى تلك البلاد ، وأن على من يريد الرحيل أن يسجل اسمه فى الوكالة التى تدفع له حتى نفقات سفره .

حتى إذا وصل هؤلاء المهاجرون بعد أن باعوا ما يملكون

أو استدانوا مبالغ من المال لقوا المصير الذى ينتظرهم فعوضاً أن يجدوا العمل والرخاء تلقتهم البطالة بشبحها المخيف ، فأعطوا بطاقة العطالة ، وهى من الورق المقوى : مستطيلة الشكل يحملها كل عربى « لكى يكون على وفاق مع المجتمع الذى نبذه » ثم يقضون أياماً طويلة يتسكعون أمام مكاتب العمل قبل أن ينحدروا إلى مهاوى البؤس والانحلال . فقد أتوا من بلادهم وهم شديدو الأجسام أقوياء البنية فإذا بهم الآن « يدخلون ويخرجون ، هزيلى الأجسام ساغبين ، لاغبين ، يشبه بعضهم بعضاً كأن لهم وجهاً واحداً ، كامدى اللون وضع لكل منهم ثقب إضافى على بطاقته فيضعها فى محفظته بعد أن يطويها بعناية ، ويربطها بخيط ، وكنت تسمع عند خروجهم صوت تذمرهم وسخطهم على الحياة فى سبحة طويلة من الشتائم » .

وكذلك كان مصير بطل الرواية كمصير مواطنيه ، بطالة قاتلة للكرامة ، ومشجعة على الخسة والجريمة فهو يقول عند تسلمه بطاقته التى لا تسمن ولا تغنى من جوع مخاطباً المكلف بمكتب العمل : « لقد أكلت بطاقتى ، ولكنها لم تسد جوعى ، ويلزمنى كيلو من البطاقات كل يوم ، وبما أن الله سيعيد

خلق كل يوم فإنى أطالبكم بكيلو من البطاقات . فهى الكمية التى تلزمنى » .

ولو أن هذه البطاقة وهذا التعويض داما لخففا من بؤس هؤلاء المساكين . ولكن عهد البطاقات قد انقضى حتى بات من الذكريات الحلوة . فقد كان هؤلاء العمال يتذكرون وهم يقهقهون ، ذلك الدور الاجتماعى من حياتهم حين كانوا يحملون بطاقات العطالة يختمونها فى يوم معين ويرسلون إلى ذويهم فى الجزائر جزءاً مما يقبضون حتى قال هؤلاء : « وإن المسيحيين يدفعون لأولادنا مالا دون عمل ، وأصبح من الصعب الحؤول دون لحاق النساء والأولاد والأقارب والأصدقاء بهم إلى فرنسا » .

كان من الطبيعى أن يفقد هؤلاء المهاجرون كرامتهم ، وأن يصبحوا فرائس سهلة للانحطاط الخلقى ، وأن يعيشوا عيشة المنبوذين . عيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية وقد حفلت رواية « التيوس » بالمشاهد الواقعية المذهلة التى تترك فى نفس القارئ أصداء نفسية مؤثرة :

« كان المهاجرون ينامون فى أقبية يصعب على المرء

اجتيازها إلا منبطحاً . وهى محرومة من اضواء والنور . لا يخرج ساكنوها منها أبداً . وإذا خرجوا منها اتخذوا الحيطة اللازمة فأحاوا ولو وقت قصير مواطنيهم محلهم . مسلحين بالمدى . مستلقين على فرشهم ينتظرون إيابهم . ستون عربيا فى كل قبو يحمون بضراوة ما يسمونه ملكهم وشخصياتهم . وما هذا وتلك سوى فرش هزيلة رقيقة كدف خشبية . سوداء . تحرك رائحتها الكريهة الغثيان ، شغلت مساحة القبو بأكملها . تفصل بين فراش وآخر حدود رمزية . ولكنها حتمية إلزامية كالعقيدة . ولا يستطيع الإنسان المنطوى المكث فى الفراش إلا بعناء لأنه يجهل ما وضع فيها ، فهى إلى جانب وظيفتها كأداة للنوم تقوم فى الوقت ذاته مقام الخزانة وطاولة الطعام ، ومستودع الحاجيات وأنواع الأوانى والسلع والمقالى وعلب الكونسروة الفارغة وقطع إطارات الكاوتشوك وكسرات الخبز اليابس . كما مدت فى القبو حبال من جدار إلى آخر علقت عليها ما عجزت الفراش عن استيعابه ، وكذلك الوصول إلى الفراش والاستلقاء عليه لا يمكن اكتسابه بالتعلم فهى هبة موروثة ! إذ على الداخل أن يعرف كيف يقفز منثنياً من الباب إلى الفراش دون أن يصدم شيئاً من سقط المتاع المعلق على الحبال وإلا نشب القتال الهائل .

ومع ذلك فعلى الفرد أن يعرف كيف يكتفى بالمساحة الضيقة ، وألا يشخر فى نومه إلا إذا سبقه الآخرون فى شخيرهم بزمن بعيد ، وأن يشخر معهم حسب الإيقاع وارتفاع الصوت أو انخفاضه ، وإذا لسعه القمل والبق فلا يحكن جلده ، لأن حكة صغيرة تهدم هذا القصر الورقى ، ومع ذلك فإن أية محاولة لقتل هذه الطفيليات مضيعة للوقت لأنها والصراصير والعث خصبة جدا وعنيدة ، ونشيطة .

نعم إن فى القبو لمبة كهربية معلقة فى السقف ، مصونة بقفص حديدى يطفئها صاحب الدار حسب مشيئته ومزاجه من منزله فى الطابق العلوى ، كما أن سواها من الأضواء ممنوع إطلاقاً ليس من قبل صاحب الدار فهو لا تطأ قدماه القبو أبداً ، بل من نزلائه الجزائريين لأنهم لا يريدون أن يرى بعضهم بعضاً ، ويأبون أن يروا بؤسهم ، وهم يتسامحون إلى أبعد حد بهذه اللمبة الكهربية المغبشة القذرة البائسة مثلهم .

وتدفع أجور هذه الأقبية كل أسبوع مقدماً ، وهى غالية جدا ، أسعارها أقل بقليل من أجور الفنادق المشبوهة ، ولكن صاحب الدار يستغل « النواحى الوراثية فى العرق العربى التى

تحتم ألا يعيش العربى ويظهر ويموت إلا عربيا وفى وسط عربى » .

وهل بلغك نبأ الحبال ! هى حبال قوية من مرس الكتان ، شدت إلى جدارين على علو ذقن إنسان ، طويلا أو قصيراً ، وقد وضعت تحت الحبل مقاعد يجلس عليها النائم مسنداً ذقنه على الحبل ، ويدفع النائم لقاء كل ساعة نوم مبلغاً معيناً حتى إذا انقضت الساعة امتدت إلى النائم يد تهزه بدون شفقة ! .

أما اليقظة فهى مفجعة ، تتفكك الكتلة البشرية كحزمة من سلاح يعلوها أنين كأنين الكلاب . وشخير وفرقعة عظام وشتائم .

كان الحنين إلى بلادهم يطغى عليهم فى شكل قاتم غامر كالمد ، وكانوا حريصين على التأخر فى العودة إلى المأوى ما أمكنهم التأخر ، فيظلون وسط الضباب الشمالى يرتجفون من البرد ويسعلون ويبصقون ، تصطك أسنانهم ويدخنون اللفائف التى لا نهاية لها ، مفتخراً كل واحد منهم بالعمل الذى حققه ذلك النهار ، وعدد طوفات الفحم التى انتزعها من الأرض ، كانوا يضحكون ضحك المصروعين ، وهو تأكيد للحالة

السخيفة غير المعقولة التى يحيونها ، هل شاهدتهم يسيرون فى شوارع فرنسا بخطى متثاقلة ، وأيد تلوح ، ووجوه شاحبة . . . ينبعث من أنوفهم البخار ، يمشون بمحاذاة الجدران ، الواحد تلو الآخر كالجرذان المتسللة حتى إذا وجدوا أمامهم منعطفاً ناتئاً ، مفاجئاً كالسد وقفوا جامدين لحظة وقد بهرتهم الضجة المنطلقة من زمامير السيارات وفرامل العجلات ، وخطوات الجمهور المحمومة ، وألوف المظاهر المبعثرة لحياة ليست حياتهم » ؟

إن مأساة هؤلاء الناس مثلثة : مادية ، ونفسية ، وعقلية :

مادية فى كونهم عاشوا فقراء محرومين ، بل إنهم « لم يعيشوا أبداً ، إذ كانت حيواتهم مجرد انتظار ورغائب ، وكبت » .

ونفسية « لأنهم فضلات ورواسب حضارة لم يتكيفوا معها » فطحنتهم هذه الحضارة برحاها الثقيلة فلم يبق لدينا كما يقول البطل ، من معانى الحياة سوى الاختلاج والتخلع ، وغدا اتصالنا بالمجتمع عن طريق السباب والسرقات واللكمات ، فإننا نأكل وننام ونرى ونسمع ونعيش فى جو من الثورة والحقد » .

ويتجلى هذا البؤس المعنوى فى عبارة أخرى نطقت بها سيمون خليلة البطل قالت : « عندما التقتطك من الأرض لم أشهد بؤسك . إننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف ما هو البؤس ، فإذا كنت تعنى هذه الثياب البرثة ، والجلد الوسخ ، وتلك اللحية القذرة ، وهذه المعدة التى ثقبها الجوع ، بل هذه العطالة عن عن العمل ، فليس هذا ما أسميه بؤساً ، فهو بؤس مادى ، زمنى ، لا أهمية له ، أما البؤس الحقيقى فهو بؤس النفوس ، بؤس لم يخلقه فيك فرنسى أو تاريخ ، فهو آت منك وحدك وستموت فيه . »

وعقلية : تكمن فى تلك الوحشة التى تنتابهم بين عالمين استحال فيهما التفاهم بين الفكر العربى الإفريقى الإسلامى والفكر الأوربى ، عالم هؤلاء المهاجرين بلغته وتقاليده وعاداته وأسسه النفسية والأخلاقية ، وعالم غريب يعيشون على هامشه ، فلا يفهمون لغته ، ولا يستسيغون عاداته ، ولا يؤمنون بمفاهيمه ومثله فى الحياة ، فيعيشون فيه غرباء ، منعزلين بعد أن استحال عليهم إيجاد أرض مشتركة للتعايش ، وروابط وصلات للتفاهم مما جعل المؤلف ينطق البطل بهذه العبارة : « لقد مضى على عشر سنين

ما برح فيها دماغى الناطق والمفكر بالعربية يطحن بصورة سخيفة المفاهيم الأوربية دون جدوى حتى تحولت تلك الأفكار إلى ضغائن سممت الدماغ نفسه . »

وفى هذا رد بليغ على الزعم القائل : إن الشعب الجزائرى العربى قابل للامتصاص والتمثل وإن الجزائر أرض فرنسية ! « لأن الفرنسيين يتفلسفون ، ويضعون الخطط والمشاريع ، وينظرون إلى القضية من زوايا مختلفة ، دينية واجتماعية ومادية ؛ ولكنهم جميعاً لا يعرفون شيئاً عن حياة العربى ونفسيته فهم يطيرون فوق العرب كما يطير المرء فوق مدينة فيرقبها من عل جالساً على مقعد وثير بعد أن يكون قد ملأ بطنه ، وعكس دماغه حاملا معه ووراءه وأمامه وفى داخل نفسه الفرضيات الرياضية القائلة إنهم وحدهم البداية والنهاية والمادة والعقوبة ، وإنهم يعرفون كيف يعيشون ويخلدون وأنهم وحدهم يملكون الحقيقة والخيال ، كما أن الاقتصاد يجب أن يوضع على صورتهم » .

فعلى من تقع التبعة فى النهاية ؟ هنا أيضاً أنطق المؤلف خليلة البطل وهى تطرد صاحبها خارج دارها : « ثم هذا هو

استغلال الأوربيين للجزائريين ؛ إنى أنكر هذا دون ريب ؛ إنى ساخطة على هؤلاء الذين أخرجوكم من دياركم ؛ فهم لا يعلمون ما يصنعون بكم حتى عجزوا عن الرأفة بكم ؛ ؛ نعم إنى أعرف إعطاء الأشياء حقها ؛ إنى أعترف بأن حضارتنا لم تستطع شيئاً سوى إلقائكم فى بحران اليأس ؛ إنى لأستحى أن أكون أوربية ؛ ولكن أنتم أهل أفريقيا الشمالية الذين أنقم عليكم أكثر ؛ لأنكم أنتم المسئولون عما وصلتم إليه ؛ لقد كنتم دوماً عرضة للاستغلال ؛ أنتم أردتم أن تستغلوا فى بلادكم قبل مجىء الفرنسيين ؛ وكنتم فى كل زمان مستغلين ؛ إنكم كالأعراق المتردية تتعاوركم الأيدى والأجيال والعصور كالأرض ، الفينيقيون ومن بعدهم اليونان والرومان والقوط والفنداليون والأتراك والفرنسيون ! »

وهكذا استطاع المؤلف أن يحقق غرضه فى كتاب « التيوس » فقد عرض شقاء قومه على أنظار الجميع فى شكل كتاب فهو عبارة عن ثلاثمائة صحيفة مطوية تضمنت جانباً من الحقيقة الجزائرية .

وفى الرواية صور بديعة صنعتها يد مفن صناع نورد بعضها :

قال يصف عيني راهب : « كانت عيناه وراء نظارتيه مسطحتين لا حياة فيهما ، كأنهما كرتان من مادة (البلاستيك) أنزلتا بعناية فى محجريهما » .

وقال يصف أكولا : « ثم شرع فكاه يطبق أحدهما على الآخر كأنهما سكينا مقصلة ! » .

وقال يصف أحلام الجائعين : « . . حتى إذا أثقله النوم سمع ضربات أسنان وقضما ومضغاً ، وكانت الحركة تلاحقه حتى فى النوم ، قوية ، آلية كأنها أحناك قطيع من الذئاب مقعية حول أرنب هزيل تنهش لحمه ، وتمضغه فى الليل فى مكان مقفر متجمد من البرد حيث لا يعثر فيه على أرنب واحد إلا مرة كل ستة أشهر ، ولكن هناك برد وجليد ووحشة !

وقال يصف مفوض مكتب العمل الفرنسى : « انتفشت فى رأسه المتورم أهدابه وشعر ذقنه ، ولم يكن له حاجبان بل كانت له عروتان من جلد أصفر تتوسطه حبتان سوداوان مدورتان لامعتان هما عيناه » .

وآخر : « جفناه جامدان كأنهما صنعا من ترابة الأسمنت تثبتان عينيه المصوبتين نحو جهة واحدة » .

قال يصف البطل وهو يقبض على خصر خليلته النحيل :
« ولو أردت إطباق يدى على خصرها لسمعت تفقيعاً يشبه تفصم هيكل عصفور » !

أما هى فقد نظرت إلى عينيه فإذا « هما غارقتان تحت حاجبيه المقوسين اللذين يبدوان كحافة قبعة . فقالت فى نفسها : كأنه يريد أن يحتمى من الحياة ! »